الفصل الثاني عشر
المؤرخ عبد الله السويدي
(١١٠٤- ١١٧٥هـ/ ١٦٩٢- ١٧٦١م)

عودة الشرعة

دكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط، باحث، وزارة التربية والتعليم- الأردن.

jasem2005@yahoo.com

المقدمة:

لم ينل السويدي حقه كاملاً من البحث، فهناك جوانب كثيرة في حياته وسيرته لم تبحث لحد الآن، ويحاول هذا البحث ما أمكن إلقاء الضوء على سيرته ومؤلفاته.

وكان لا بد من لمحة عن الأوضاع السياسية السائدة في المنطقة، تمثلت في الصراع العثماني الإيراني (سني، شيعي)، ففي ظل هذه الظروف ظهر السويدي واستطاع مواصلة تعليمه حتى برز كأشهر علماء العراق. وقد ألقينا الضوء على أبرز شيوخه الذين تلقى منهم، وتلاميذه الذين نهلوا منه، وكذلك مؤلفاته التي ما زال بعضها مخطوطاً لم يرَ النور لهذه اللحظة.

وأبرز مؤلفات السويدي كانت رحلته التي دوَّنها وسمّاها (النفحة المسكية في الرحلة المكية) التي كانت بمثابة مرآة لذلك العصر. وما يلفت في هذه الرحلة نظرته الانتقادية لأوضاع العالم الإسلامي، ورؤيته لعلماء ذلك العصر، وهو يعد رائد التقسيم المجتمعي؛ إذ قسم المجتمع الشامي تحديداً إلى طبقات وأطنب في وصف كل طبقة.

وأشرنا إلى دوره في مؤتمر النجف الذي دعا إليه شاه إيران نادر شاه تحت مسمى التقريب بين المذاهب، والذي بدا فيه السويدي عالماً صاحب حجه قوية، ألزم كل العلماء بالتوقيع على ما يقترفه بعض الشيعة من بدع.

أولاً: التحولات السياسية في المنطقة

منذ منتصف القرن السابع إلى أوائل القرن الثامن عشر تميز تاريخ بغداد بكثرة تغير الولاة وكثرة الاضطرابات، بسبب الاحتلال الصفوي وحروب الاسترداد العثمانية. ولكن مع إطلالة القرن الثامن عشر وبالتحديد عام ١١١٦هـ/١٧٠٤م حصل تحسن ظاهر مع ولاية حسن باشا ، فقد أثبت أنه من أكفأ الشخصيات في النواحي السياسية والعسكرية والإدارية. وشكّلت مدة حكمه الطويلة نسبياً ١١١٦هـ/١٧٠٤م-١١٣٦هـ/١٧٢٣م وامتدادها في عهد ولده أحمد باشا ١١٣٦هـ/م١٧٢٣-١١٦٠هـ/١٧٤٧م نقطة تحول في تاريخ العراق. ويعدّ حسن باشا المؤسس الحقيقي لحكم مملوكي[١] شبه وراثي، ليس لمماليك بغداد أي علاقة عرقية أو تاريخية مشتركة مع مماليك القاهرة القدماء، الذين كانوا قد ترسخوا في كل من الدولة والمجتمع المصري. وقد ترسخ حكم حسن باشا في العراق خلال التغيرات السياسية التي أصابت بنية العلاقات التاريخية للمنطقة، فقد كان الحكم الصفوي قد انتهت فعالياته في عام ١١٣٥هـ/١٧٢٢م إثر الإطاحة به في موقعة (جولنا باد) من قبل قائد أفغاني اسمه مير محمود، قاد قواته القبلية ليؤسس دولة سنية في إيران تحت رئاسته ، وأطاح بالشاه حسين الأول (١١٠٦هجري / ١٦٩٤م) الذي وقع أسيراً، فهرب ابنه طهماسب الثاني ١١٣٥هـ/١٧٢٢م-١١٤٥ هـ/١٧٣٢م، وعقد معاهدة مع القيصر الروسي بطرس الأكبر ١١٣٦هـ/١٧٢٣م تعهد بمقتضاها مساعدة طهماسب الثاني على استعادة ملكه مقابل تنازل الشاه عن بعض مقاطعاته الشمالية.[٢]

ونظراً لتزايد خطر الأفغانيين، ورغبة الدولة العثمانية في الحيلولة دون انفراد قيصر روسيا بطرس الأكبر في احتلال مناطق إيران الشمالية، فقد تدخل العثمانيون في بلاد الكرج وتوصلوا إلىٰ اتفاق مع روسيا عام ١١٣٧هـ/١٧٢٤م باقتسام شمالي إيران، وتوغلت القوات العثمانية بقيادة حسن باشا في غرب إيران واحتلت كرمنشاه، وفي خلال هذه الحملة توفي حسن باشا وهو في طريقه إلىٰ همذان ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣ م فخلفه ابنه أحمد باشا في ولاية بغداد وقيادة الجيش العثماني.[٣]

وفي عام ١١٤٠هـ/ ١٧٢٧م، انتهت هذه الحملة؛ إذ إن الرأي العام كان يرىٰ في هذه الحملات التي قادتها الدولة العثمانية ضد الأفغان المسيطرين علىٰ إيران حروب (سني ضد سني) ما يعد مخالفة شرعية، فقد وصلت أوامر سلطانية بفتح باب المفاوضات وقضت الاتفاقية علىٰ أن تكون همذان وكرمنشاه واردلان ولرستان من حصة السلطان، وأن يكون أشرف خان الأفغاني ملكاً علىٰ إيران خاضعا لسيادة الخليفة الروحية.[٤]

وفي خضم سيطرة الحكم الأفغاني علىٰ إيران ظهر قائد شرعي لقبيلة الافشار التركمانية اسمة(نادر قولي) بدأ يتدرج بالتقرب من الصفويين المبعدين نتيجة للخدمات الحربية التي اضطلع بها، ولقي تأييداً مطلقاً من قبل الشاة طهماسب الثاني، فاستطاع نادر قولي أن يحتل أصفهان ويطرد الأفغان من إيران عام ١١٤٢ هـ/ ١٧٢٩م، وعاد الصفويون إلىٰ إيران، فأرسل الشاه الصفوي يطالب العثمانيين بإعادة الأرض التي ضموها إلىٰ دولتهم[٥] فكانت الحرب عام ١١٤٤هـ/١٧٣٠م وحدثت هزيمة ساحقة للجيش الصفوي؛ إذ ضاع نصف جيشه، بينما كانت خسائر العثمانيين لا تزيد علىٰ ألف رجل، وانتهت مفاوضات الصلح عام ١١٤٥هجري/١٧٣٥م بعقد معاهدة بين الطرفين تكون بموجبها أقاليم إيران الغربية تحت حكم الشاه.[٦]

لم يرض نادر قولي عن المعاهدة التي وقعها الشاه طهماسب الثاني مع الدولة العثمانية، فرفض المعاهدة وعزل الشاه وولىٰ مكانه ابنه الطفل عباس ميرزا، ونصَّب نفسه وصياً عليه. وفي أوائل عام ١١٤٦هـ/ ١٧٣٣م، زحف نادر قولي بجيوشه نحو بغداد، وحاصرها حصاراً شديداً دام أشهراً عدة، كابد فيها سكانها من القسوة والجوع والمرض دون أن تستسلم، واستطاع العثمانيون فك هذا الحصار، ولكن نادر قولي رجع علىٰ رأس قواته أواخر عام ١١٤٦ هـ/١٧٣٣م ليلتقي بجيش العثمانيين قرب كركوك ويهزمهم، ولكنه لم يستطع السيطرة علىٰ الأقاليم العراقية، وذلك للثورة التي قامت في إيران، فقبل بتوقيع صلح.[٧]

ولكن طموح نادر شاه كان يذكي روح الحرب، فقد استطاع أن يجهز جيشاً كبيراً علىٰ مدىٰ سنتين ١١٥٤-١١٥٦ هـ/١٧٤١-١٧٤٣م لكي يغزو العراق، ولكنه لم يحاصر بغداد هذه المرة، بل شرع بالإعداد للسيطرة علىٰ الموصل، واستطاع أن يحاصرها بعد أن سقطت بيديه مسالك العراق وخطوطه كاملة وكل المدن العراقية المهمة، وخاصة اجتياحه لمدينتي كركوك وأربيل، وتوجهه لمحاصرة الموصل، حصاراً شديداً من قبل قواته التي بلغ عددها ثلاثمائة ألف، ولكن خطط نادر شاه فشلت فشلاً ذريعاً، ثم استتب الأمر بعد أن تهاوىٰ كل من الطرفين، واستمرت الحرب بين الفرس والعثمانيين حتىٰ عام ١١٥٩ هـ/١٧٤٦م التي وقعت خلالها معاهدة سلام نهائية بين الطرفين.[٨]

وفي عام ١١٦٠هـ/١٧٤٧م أعلنت وفاة نادر شاه، ثم توفي الوزير أحمد باشا بن حسين باشا بعد ذلك بشهرين، وقد عمل هذان الوزيران علىٰ جلب المماليك الكيرليميين(الأرقاء البيض) من قوقاسيا وجورجيا وبدءا بتدريبهم وتنظيمهم وتثقيفهم ليشكلوا خلال القرن الثامن عشر الميلادي طبقة عسكرية وإدارية حاكمة في بغداد، فقد حكم هؤلاء المماليك العراق منذ ١١٦٣هـ- ١٢٤٧ هـ/١٧٤٩-١٨٣١م. ولكنهم لم يكونوا صفوة عسكرية فقط كما حدث في مصر، بل كوّنوا صفوة إدارية.[٩]

ويمكن القول إن هذه الحروب العثمانية الإيرانية نبهت العثمانيين إلىٰ الاهتمام بمدن العراق والعناية بمرافقها العسكرية من أبراج وخنادق، تحسباً من غزو إيراني مرتقب في كل حين، فكان ذلك المظهر العمراني الوحيد الذي شهدته مدن العراق منذ أوائل العصر العثماني حتىٰ سيطرة

المماليك على مقاليد الحكم، ونهوض الأسر المحلية فيه.(١٠)

ومن الناحية الأخرى كانت هذه الحروب جالبة للمجاعات والطواعين والتخريبات، ولكن الخطر الأشد شراسة هو سلسلة التمردات القبلية. وبرزت الأطماع المنشودة بين القبائل الطليقة، فتكوَّنت حكومة عشائرية من المدن المقدسة إلى ديار بكر، ومن قبائل شمر التي حالفت نادر شاه وجهزته بالأدلاء، أما بنو لام فقد كانوا مناصرين علنيين للإيرانيين،(١١) وفي هذه الأثناء أخذت بريطانيا توطد قدمها الاستعماري من طريق شركة الهند الشرقية التي فتحت محلاً دائماً لها في البصرة.(١٢)

ثانياً :التعريف بعبد الله السويدي

هو مرتضى المعروف بعبد الله بن حسين بن مرعي بن ناصر الدين بن الحسين بن علي بن حمد الموكل بن الحسين بن علي بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي بكر بن الفضل بن احمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحق بن جعفر بن أحمد بن الموفق طلحة بن جعفر بن محمد بن الرشيد بن محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي.(١٣) وكنيته أبو البركات، جمال الدين الشهير بالسويدي،(١٤) وأسرته إحدى الأسر العظيمة الكريمة في بغداد، وهي من سلالة البيت العباسي الذي اضطلع بأمر الخلافة الإسلامية زمناً طويلاً.(١٥)

ولد سنة (١١٠٤هـ/١٦٩٢م) في الكرخ في بغداد،(١٦) وتوفي والده وهو في سن الخامسة، وكفله وأخواته خاله أحمد بن سويد الصوفي وتعهدهم برعايته(١٧) أما المرادي فيذكر في "سلك الدرر" أن الذي كفله هو عمه لأمه الشيخ أحمد بن السويد.(١٨)وتوفي سنة ١١٧٥هـ/١٧٦١م(١٩) ودفن في جوار مسجد الشيخ معروف الكرخي، في مقبرته الكائنة بالجانب الغربي من بغداد.(٢٠) وبعد انتهائه من تلقي مبادئ العلوم العربية في الكتَّاب وتعلّم الخط أرسله خاله إلى الشيخ حسين نوح الذي يتولى التدريس في المدرسة العمرية، فانتظم فيها واستعان بمخصصاتها على مواصلة التفرغ العلمي، حتى فاق أقرانه وبات موضع اعتزاز شيخه وثنائه، وما لبث أن انتقل إلى شيوخ آخرين ليستزيد من العلم، فانتقل إلى المدرسة المرجانية فالأحسائية ثم رحل إلى مدينة الموصل بهدف الاستزادة من العلوم التي لم تكن موجودة في بغداد، فاستغرقت إقامته فيها ثلاثة عشر شهراً من طلب العلم في ظل ظروف قاسية بلا مساعد ولا معين. وبعد عودته لبغداد ذاع صيته واشتهر أمره، فقد حصَّل من العلم ما لم ينله غيره من معاصريه، حتى اشتهر بالسويدي، وتحسنت ظروفه، فتزوج من امرأة صالحة تدعى فاطمة، شجعته على الاستزادة من طلب العلم.(٢١)

وزاد في شهرته اتصاله بأحمد باشا بن حسن باشا الذي كان يرغب في تقريب العلماء والأدباء إليه، فنشأت بين الباشا والشيخ صداقة وثيقة. وبعد حصار نادر شاه لبغداد ١١٤٥هـ/١٧٣٢م لم يتخل السويدي وأسرته عن الدفاع عنها، وفشل نادر شاه في اقتحام المدينة الصامدة، فلفتت شهرة الشيخ العلمية وكفاءته الشخصية انتباه أحمد باشا، حتى أمر بتعينه مفتياً في قصبتي النجف وكربلاء.(٢٢)

وقد نشط في مجال العلم والتعلم، وتولى التدريس في جامع الإمام أبي حنيفة النعمان، والمدرسة المرجانية، ومدرسة عبد القادر الجيلاني.(٢٣)

وانتدب ممثلاً للجانب العثماني إلى معسكر نادر شاه في المؤتمر المعقود هناك تحت ذريعة التوفيق بين المذاهب الإسلامية. وبعد فراغه من هذه المهمة وشعوره بالرضا عن دوره، عزم على الحج، وقام برحلة طويلة إلى مكة المكرمة، زار خلالها العديد من المدن والقرى، والتقى بالكثير من الأدباء والعلماء، وجمع أخبار الرحلة في كتابه: (النفحة المسكية في الرحلة المكية).(٢٤)

ولقد كان للعصر الذي نشأ فيه المؤرخ عبد الله السويدي الأثر البالغ في تكوين شخصيته العلمية، لأن من كان يحظى برعاية المجتمع وتقديره هم طبقة المثقفين والمتعلمين، ولأجل ذلك وجهه خال أحمد بن سويد الصوفي إلى طلب العلم، ابتداء بالكتاب حتى أحب العلم ورغب فيه، كما ترك شيخه أثراً بالغاً حبَّبه في العلم والتعلم، وكان له الأثر في بناء شخصيته، فضلاً عن رغبته غير الاعتيادية في مواصلة العلم وما تضفيه على رجالها من هيبة وسكينة، فثابر وجدَّ وأحبَّ العلم والتعلم والاستزادة حتى التزم المدرسة

العمرية فالمرجانية فالإحسائية، وارتحل للاستزادة من العلم في الموصل، ولم يزل حتىٰ وفاته يطلب العلم ويعلمه حتىٰ رحلته إلىٰ الحج التي ألف فيها (النفحة المسكية في الرحلة المكية)[٢٥] التي يقول فيها: "والحاصل أني نلت في الطلب نهاية التعب وغاية النصب، مع عدم المساعدة والمعين والناصر والظهير حتىٰ حصلت علىٰ أكثر الفنون من سائر العلوم".[٢٦]

ثالثاً: شيوخه وتلاميذه

أخذ السويدي العلم عن عدد كبير من العلماء والشيوخ الذين التقىٰ بهم في بغداد والموصل وبلاد الشام والحرمين الشريفين وهم كثر، ولكن أبرزهم الشيخ محمد بن علي السندروسي الطرابلسي (توفي ١١٧٧ هـ- ١٧٦٣م) والشيخ علي بن مصطفىٰ الدباغ المعروف بالميقاتي (توفي ١١٧٤هـ/١٧٦٠م) والشيخ عبد الكريم بن أحمد الشراباتي الحلبي (توفي ١١٧٨هـ/ ١٧٧٣م).[٢٧]

وأقرأ السويدي في كثير من البلاد والمدن التي زارها، فأقرأ في حلب دروساً عامة وخاصة، وأخذ عنه بها خلق كثير، وأقرأ بدمشق وأقبل عليه الطلبة لتلقي العلوم، وكذلك بالمدينة المنورة. ومن أبرز تلاميذه: الشيخ عبد الكريم بن أحمد الشرباتي الحلبي توفي ١١٧٨هـ/ ١٧٧٣م وعبد الرحمن ابن عبد الله السويدي (أبو الخير) (توفي ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م) وأحمد بن عبد الله السويدي (أبو المحامد) (توفي ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م).[٢٨]

رابعاً: مؤلفاته

وضع السويدي عدداً من الكتب والرسائل في المجالات العلمية التي عني بها، وتشمل علم القراءات والتفسير والحديث واللغة والنحو والأدب والشعر وغيرها. ولقد أشار مترجموه إلىٰ أن له مؤلفات متعددة، ولكن أحداً منهم لم يحط بكل عناوينها. وهناك بعض المصادر نوهت بمؤلفات له فقدت ولم يعرف مصيرها.وأهم مؤلفاته:

١. تعليقات علىٰ شرح المقدمة الجزرية في علم تجويد القرآن الكريم.
٢. شرح صحيح البخاري.
٣. أنفع الوسائل في شرح الدلائل شرح، فيه كتاب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة علىٰ النبي المختار.
٤. رسالة تناولت عدداً من المسائل العقائدية والفقهية، استند فيها علىٰ الكتب المردودة وناقشها، وقد رتبها علىٰ مباحث أفرد كلاً منها مواضيع.[٢٩]
٥. رشف الغرب في شرح لامية العرب[٣٠]
٦. إتحاف الحبيب علىٰ شرح مغني اللبيب، وهو حاشية ناقش فيها شرح مغني اللبيب من كتب الأعاريب.
٧. مقالة الأمثال السائرة المتضمنة للأحوال الموصلة للمقامات الآخرة.
٨. مقامة أدبية أنشاها علىٰ لسان من أسماه قيس الشجون، يروي فيها أخبار أبي الوله العزام.
٩. الجمان في الاستعارة[٣١]
١٠. النفحة المسكية في الرحلة المكية[٣٢]

خامساً: نتاجه الفكري

نبعت نتاجاته السويدي الفكرية مما تعلمه علىٰ أيدي شيوخه، فقد كتب في المجالات العلمية التي عني بها، ووضع كثيراً من المصنفات في كثير من أبواب العلم. والمتابع لمصنفاته يجد أنه قد كتب في علوم القرآن والحديث وفي علم الكلام(العقائد) وفي الأذكار والأخلاق الدينية وفي الردود والمناقشات، وفي اللغة والنحو والأدب والبلاغة، وفي التاريخ والرحلات وفي الشعر والفكاهة أيضاً.

وما يبرز في نتاجه الفكري أن كتاباته وشروحاته احتوت علىٰ روح نقدية جديدة لم نكن نلحظها لدىٰ سابقيه ومعاصريه علىٰ الأقل، وبشرت بولادة اتجاه قوي له موقف مما في الكتب الموروثة التي اكتسبت قدسية خاصة، لكثرة ما اعتمدها الشيوخ أولاً، ثم مما كان يبرز في واقعهم نفسه من ظواهر اجتماعية مختلفة. إن هذه الروح الجديدة في تناول النص ومناقشة صاحبه، مهما كانت منزلته، هي أهم ما أورثه السويدي لتلاميذه العديدين، وهو بهذا يمكن أن يكون رائداً لمدرسة نقدية حقيقية في وسع الباحث أن يتتبع مسارها إبان أواخر القرن الثاني عشر للهجرة -الثامن عشر الميلادي.[٣٣]

لقد كان السويدي يمثل نهاية لحقبة اتسمت بالركود والنزوع إلىٰ التقليد في كل شيء، وبداية لحقبة جديدة أخذت تتجلىٰ فيها -مع مرور الزمن- ملامح نهوض ثقافي جديد، فهو من ناحية شارك في إعادة وصل ما كان قد

قطعته النوائب من صلات تربط بين مثقفي وطنه والمثقفين العرب بوجه عام، وعمل من ناحية أخرىٰ علىٰ خلق تيار عسكري في العراق قادر علىٰ أن يكوّن موقفاً حقيقياً من العلوم والمعارف السائدة إبان ذلك العصر، يناقشها ويحاوره بقسط من الثقة بالنفس والحرية، لم يكن متوفراً في قرون الظلام، التي أعقبت انهيار النظام العباسي، وهو ما تطور بسرعة ليؤلف موقفاً فكرياً لدىٰ مثقفين تالين إزاء الواقع الاجتماعي في العراق إبان العصر الحديث.(٣٤)

وأبرز المؤثرات التي جعلته يكتب في شتىٰ المجالات هو إنشاء ذلك الموقف وتلك المدرسة وذلك اللون من التذوق في العلم والفهم، وتجاوز المألوف، والرد علىٰ نظريات خاطئة، أو تجانب الصواب، في وقت كانت تدرس فيه علىٰ أنها كتب وشروحات مقدسة. ويظهر منهجه هذا كثيراً في أمثلة كثيرة، منها انتقاده لمنهج الشيخ إسماعيل العجلوني(٣٥)بقوة، مستهدفاً منهجه في تقريظه لشرح صحيح البخاري؛ إذ وصفه بأنه مجرد نقول لا محاكمة فيه ولا تحرير معنىٰ ولا ضبط مبنىٰ، بل إنه ينقل عبارة بعض الشروح ثم يعقبها بعبارة شرح آخر، ويكون بين العبارتين مخالفة، فما يرجح أحد القولين علىٰ الآخر ولا يجمع بينهما، وتارة تكون العبارتان متفقتين فيؤول إلىٰ التطويل من غير فائدة. وانتقد منهجه في تدريس الشرح بأنه يجري من غير تقرير ولا تحرير ولا حل إشكال، لا فك تركيب في نقده، هنا لم يكن كتاباً يقرر ما كان منهجاً بأكمله.(٣٦)

ويمكن اعتبار رحلته (النفحة المسكية في الرحلة المكية) بمثابة رصد للحياة الثقافية في المشرق العربي إبان القرن الثاني عشر للهجرة/ الثامن عشر للميلاد؛ إذ أوضحت عمق الصلات الثقافية بين العلماء والأدباء في المدن العربية آنذاك، فقد سجَّل فيها أسماء العلماء الذين التقىٰ بهم وترجم لبعضهم، ونوه بعلومهم ومعارفهم، ودوَّن عناوين مؤلفاتهم، وثبَّت شيئاً مما جرىٰ بينه وبينهم من محاورات ومناقشات علمية، وما أخذه عنهم من إجازات وما أخذوه هم عنه. وتبرز أهمية تلك الإجازات في أنها احتوت قوائم دقيقة بالعلماء الذين أخذ عنهم صاحب الإجازة، فبينت مِن ثمَّ طرق تسلسل العلم وأخذ الرواية.

وسجل نماذج من نصوص بعض الرسائل الأدبية المتبادلة بينه وبين معاصريه من العلماء والأدباء، وفيها فوائد جمة تعبر عن روح العصر وذوقه السائد.

ونلمح في كتابه نظرة انتقاديه لعلماء عصره، فيقول عن علماء دمشق ما نصه: "وأما علماؤهم فهم لا تحقيق عندهم ولا إتقان. حضرت درس الشيخ إسماعيل العجلوني مرات وحوله جماعة من طلبته كل واحد علىٰ رأسه عِمَّه كالفلك الأطلس، وهو يقرئ البخاري وبيده شرحه الذي جمعه من عدة شروح، مجرد نقول لا محاكمة فيه ولا تحرير معنىٰ ولا ضبط مبنىٰ، بل إنه ينقل عبارة بعض الشروح ثم يعقبها بعبارة شرح آخر، ويكون بين العبارتين مخالفة، مما يرجح أحد القولين علىٰ الآخر ولا يجمع بينهما، وتارة تكون العبارتان متفقين فينقلها فتؤول إلىٰ التطويل من غير فائدة".(٣٧)

ولكنه يشتط قليلاً في نقد العلماء(علماء دمشق) قائلاً: "فوالله إن أدنىٰ طالب في بلادنا أفضل منهم".(٣٨) وينتقد مجلس أحمد المنيني قائلاً: "فرأيته وبيده كراس القسطلاني ويمليه من غير تقرير ولا تحرير ولكنه ملك من الدنيا شيئاً كثيراً، مدخوله كل يوم ألف عثماني وكذا الشيخ الأول".(٣٩)

ويرىٰ أن هؤلاء العلماء فيهم غلظة وجفوة، حيث لا يؤالفون الغرباء ولا يخالطونهم ولا يلائمونهم حتىٰ لا يظهر جهلهم.(٤٠) ويتعجب السويدي كيف أن أحد عامة بغداد من الذين لا علم لهم ولا حال جاء إلىٰ دمشق وادعىٰ المشيخة في الطريق، وقلل الخروج من بيته حتىٰ صار يسمىٰ الشيخ حسين وقد ذاع صيته في أنحاء دمشق كلها علىٰ أنه من العلماء، بينما هو في حقيقة الحال من أعوان الظلمة.(٤١)

ويعدّ السويدي أول من قسم المجتمع الدمشقي إلىٰ طبقات، فعدّها ثلاث طبقات: الطبقة السفلىٰ هي طبقة الينكجرية(٤٢) ومن كان علىٰ طريقهم من الأراذل والأنذال، وهؤلاء لا دين لهم ولا مروءة، وأما الطبقة العليا فهم أكابر العلماء ومشايخ الطرق، فهؤلاء كذابون مراؤون لا علم ولاعمل، ويأتي المتصوفة من ضمنهم، ويصورهم السويدي علىٰ أنهم يحبون التبجيل والثناء، حتىٰ إنه يتصور لو قدم إليهم أحد التابعين لمدوا أيديهم إليه ليقبلها، ومن أحوالهم

أنه إذا خرج بعضهم للصلاة فإنه يضع على كتفه سجادة ولا ترضى نفسه بأن يصلي على حصر المسجد، ومنهم من يلازم بيته لتزوره العوام وأهل الدنيا، وإذا وقع بأيديهم شيء من مال أخذوه حتى إن كان ظلماً،[٤٣] أما الطبقة الوسطى، فهم أهل الحرف كالعطارين والبزازين والبقالين وبعض العلماء ومن ينحو نحوهم، ولهؤلاء ينتمي السويدي، وقد مدحهم بقوله: "فلهم رقة وديانه وصلاح وأمانة وإكرام للغرباء وحسن ظن بالصلحاء، يوادون الغريب ويكرمونه ويبجلونه".[٤٤]

ومن الأمور التي تحسب للسويدي اختياره ممثلاً لأهل السنة للمشاركة في المؤتمر الذي دعا إليه نادر شاه لتوحيد المذاهب الإسلامية، فقد اختاره الوزير أحمد باشا للمشاركة في هذا المؤتمر الذي سيعقد في النجف، ويظهر أنه رفض في البداية لما عرف عن نادر شاه من ظلم وتعنت، ولكن إصرار الوزير كان أقوى من رفضه.[٤٥]

والواقع أن سبب دعوة نادر شاه لهذا المؤتمر هو ما كان يحس به داخل دولته التي تضم تركستان وأفغانستان(سنة) وإيرانيين(شيعة) وكل يتهم الآخر بالكفر.[٤٦]

ويصف السويدي حفاوة استقبال نادر شاه وحاشيته وإكرامهم له، وهذا ما خفف من رهبة الأمر وما كان يعتريه من قلق. أول من حاوره كان الملا باشي أحد علماء الشيعة، وفي كل مرة كان يحتج بآيات قرآنية وأحاديث على أفضلية علي بن أبي طالب، فكان السويدي يجيبه بدليل أقوى، حتى إن بعض الحاضرين حين شعر بقوة حجة السويدي وتمكنه من العلم خاطب الملّا باشي بأن اترك المباحثة مع هذا فإنه شيطان!! وحين جاء دور السويدي بطرح الأسئلة لم يأت بحديث ولا بآية، مخافة أن يؤولها الملّا باشي بتفسير آخر، ومع ذلك كانت أجوبته مسكتة للملّا.[٤٧]

وحين علم نادر شاه بما جرى قرر جمع علماء إيران وعلماء الأفغان وعلماء ما وراء النهر، وأن يكون السويدي ناظراً عليهم، فاجتمعوا في اليوم الأول عند ضريح الإمام علي، وقد بلغوا أكثر من سبعين عالماً وانتهوا إلى حرمة سب الشيخين وتكفير الصحابة، وتعهد علماء الشيعة بالإقلاع والنهي عن ذلك. وحينئذ يعدون من المسلمين، لهم ما للسنة وعليهم ما على السنة[٤٨]

وفي اليوم الثاني من المؤتمر اجتمع العلماء وأتوا بجريدة كتبوا فيها ما مضمونه أن الصحابة كلهم عدول، والتزموا برفع السب وتكفير من يفعل ذلك، وأن فضلهم كخلافتهم على الترتيب أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم، ومن قال خلاف ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وعليه غضب نادر شاه.[٤٩]

ويظهر أنهم حمّلوا الشاه إسماعيل الصفوي كل البدع التي عليها الشيعة،[٥٠] ووقع العلماء كلهم على هذه الجريدة التي باركها وصادق عليها نادر شاه.

الخاتمة

عاش السويدي في فترة حافلة بالصراع السياسي بين السنة والشيعة، ومع ذلك نبغ عالماً فذاً، وكان السويدي أبرز علماء العراق في القرن التاسع عشر، وقد أخذ السويدي العلم عن مجموعة من الشيوخ والعلماء الذين كان لهم أكبر الأثر في تكوينه.

ترك السويدي مؤلفات كثيرة في مختلف مجالات العلوم. ويعدّ كتاب «النفحة المسكية في الرحلة المكية» من أبرز مؤلفات السويدي، وقد أتى فيه على ذكر الكثير من مناطق الشام والعراق والحجاز.

ويعدّ السويدي أول من قسم طبقات المجتمع الدمشقي إلى ثلاث طبقات. وكان للسويدي رؤية نقدية صريحة في حق علماء عصره وخاصة علماء الشام.

المراجع

(١) مجموعة من الباحثين، العراق في التاريخ، بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٨٣م، ص٥٨٦-٥٨٧.
(٢) الجميل، سيار كوكب. تكوين العرب الحديث، الموصل: دار الكتب، ط١، ١٩٩١، ص٢٠٨.
(٣) مجموعة من الباحثين، العراق في التاريخ، مرجع سابق، ص٥٨٩-٥٩٠.
(٤) ستيفن، هيمسلي لونكريك. أربعة قرون تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، بغداد: مطبعة البرهان، ط٣، ١٩٦٢م، ص١٣٣.
(٥) الجميل، تكوين العرب الحديث، مرجع سابق، ص٢٠٩.
(٦) ستيفن، أربعة قرون من تاريخ العراق، مرجع سابق، ص١٣٥.
(٧) الجميل، تكوين العرب الحديث، مرجع سابق، ص ٢١٠.
(٨) غرايبة، عبد الكريم. تاريخ العرب الحديث، بيروت: الأهلية للنشر، ١٩٨٧م، ص٥٦.
(٩) الجميل، تكوين العرب الحديث، مرجع سابق، ص٢١١.
(١٠) مجموعة من الباحثين، العراق في التاريخ، مرجع سابق، ص٦٠٢.
(١١) ستيفن، أربعة قرون من تاريخ العراق، مرجع سابق، ص١٥٣.
(١٢) المرجع السابق، ص١٥٥.
(١٣) رؤوف، عماد عبد السلام. عبد الله السويدي وسيرته ورحلته، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٨م، ص١٣.
(١٤) المرادي، محمد بن خليل أفندي. سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٩٥م، ج٢ ص٨٤.
(١٥) مقتطف من مذكرات السويدي من:
- السويدي، عبد الله. مؤتمر النجف، تقديم: محب الدين الخطيب، بغداد: مطبعة البصري، (د.ت)، ص١٥.
(١٦) العزاوي، عباس. تاريخ علم الفلك في العراق، بغداد: بيت الحكمة، ط١، ٢٠٠٤م، ص٤٨٨.
(١٧) رؤوف، عبد الله السويدي وسيرته ورحلته، مرجع سابق، ص١٥.
(١٨) المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، مرجع سابق، ج٢، ص٨٥.
(١٩) كحالة، عمر رضا. معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٣م، ج٢، ص٢٣٨.
(٢٠) رؤوف، عبد الله السويدي وسيرته ورحلته، مرجع سابق، ص٢٧.
(٢١) المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، مرجع سابق، ج٢، ص٨٤.
(٢٢) رؤوف، عبد الله السويدي وسيرته ورحلته، مرجع سابق، ص٢٨
(٢٣) رؤوف، عماد عبد السلام. الآثار الخطية في المكتبة القادرية، بغداد: مكتبة المثنى، ١٩٧٣م، ج١، المقدمة.
(٢٤) السويدي، مؤتمر النجف، مرجع سابق، ص١٥.
(٢٥) رؤوف، عبد الله السويدي وسيرته ورحلته، مرجع سابق، ص١٥
(٢٦) السويدي، عبد الله بن حسين. النفحة المسكية في الرحلة المكية، تحقيق: عماد عبد السلام رؤوف، الامارات العربية المتحدة: المجمع الثقافي، ٢٠٠٣م، ص٧٢.
(٢٧) رؤوف، عبد الله السويدي وسيرته ورحلته، مرجع سابق، ص١٧.
(٢٨) المرجع السابق، ص٢٧.
(٢٩) المرجع السابق، ص٤٤.
(٣٠) كحالة، معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية، مرجع سابق، ج٦، ص٤٨.
(٣١) رؤوف، عبد الله السويدي وسيرته ورحلته، مرجع سابق، ص٤٤.
(٣٢) كحالة، معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية، مرجع سابق، ج٦، ص٤٨.
(٣٣) رؤوف، عبد الله السويدي وسيرته ورحلته، مرجع سابق، ص٥٢.
(٣٤) المرجع السابق، ص٥.
(٣٥) إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي العجلوني ولد في بلدة عجلون، أخذ العلم عن كبار علماء دمشق ثم اختير مدرساً في الجامع الأموي حتى وفاته سنة ١١٦٢هـ/ ١٧٤٩م. انظر:
- المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٩.
(٣٦) رؤوف، عبد الله السويدي وسيرته ورحلته، مرجع سابق، ص٥.
(٣٧) السويدي، النفحة المسكية في الرحلة المكية، مرجع سابق، ص٢٤٣.
(٣٨) المرجع السابق، ص٢٤٣.

(٣٩) أحمد بن علي الطرابلسي ولد في منين ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م، أكمل دراسته على أيدي كبار علماء دمشق وأخذ الطريقتين النقشبندية والقادرية له مؤلفات أهمها: (الأعلام بفضائل الشام)، (الفتح الوهبي في شرح تاريخ أبي نصر العتبي)، ١١٧٢هـ/ ١٧٥٩م. انظر:
- كحالة، معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية، مرجع سابق، ج٢، ص١٥.

(٤٠) السويدي، النفحة المسكية في الرحلة المكية، مرجع سابق، ص٢٤٤.

(٤١) المرجع السابق، ص٢٤٥.

(٤٢) الينكجرية: هو الجيش النظامي وأغلبهم من المشاة وصنوف المدفعيين وحملة الأسلحة النارية. أنشئ في النصف الثاني من القرن ١٤م، وقد بلغ عددهم في دمشق في أواخر القرن ١٧م ما يتراوح بين ٣٠٠٠و ٤٠٠٠ جندياً. انظر:
- الحمود، نوفان رجا. العسكر في بلاد الشام، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨١م، ص٤٢.

(٤٣) السويدي، النفحة المسكية في الرحلة المكية، مرجع سابق، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٤٤) المرجع السابق، ص٢٤٥.

(٤٥) السويدي، مؤتمر النجف، مرجع سابق، ص١٧.

(٤٦) المرجع السابق، ص٢١.

(٤٧) المرجع السابق، ص٢٨-٣١.

(٤٨) المرجع السابق، ص٣١-٣٦.

(٤٩) المرجع السابق، ص٤١.

(٥٠) المرجع السابق، ص٤٠.